هوامش

لم يعتد الناس على رؤية قبر في سوق يقصده كثيرون يومياً. لكن في العاصمة تونس، وتحديداً في سوق «السكاجين» في المدينة العتيقة، قبر يثير دهشة الزوار والسياح، من دون أن يعرف أحد القصة الحقيقية لوجوده

ما من رواية واحدة لسر وجود القبر (العربي الجديد)

قبر «السكاجين»

حكاية فريدة في سوق المدينة العتيقة في تونس

تونس ـ **مريم الناصري**

عند مدخل المدينة العتيقة في تونس العاصمة، وتحديداً في سوق «السكاجين»، يفاجأ الزوار والسياح بقبر وسط زقاق السوق. يمرّ هؤلاء مستغربين وجود قبر وسط الطريق من دون أن يكلف البعض أنفسهم عناء السؤال أو الاستفسار عن الأمر. في المقابل، يثير الفضول آخرين لمعرفة قصة ذلك القبر، وسبب الحفاظ عليه وسط الطريق، على الرغم من أنّه يعطّل حركة السير.

في هذا السياق، يقول عبد الحميد، أحد أصحاب محال بيع الفضة في السوق: «القبر يُثير دهشة الغرباء فعلاً. العديد من المارة يدخلون محلي الصغير لأنّه الأقرب إلى القبر للاستفسار عن سبب وجوده وسط الطريق. هل هو لأحد الأولياء الصالحين، أو أنه مجرّد قبر عادي؟ ومن يهتم ويعتني به؟». يضيف: «الرواية التي يتناقلها البعض في السوق أُخذت عن كبار التجار والحرفيين في المدينة العتيقة، وتم تناقلها جيلاً بعد جيل. ولا شيء يثبت صحتها، خصوصاً وأنّها تختلف من راوٍ إلى آخر. لكن الثابت فيها أنّ الجثة تعود لجندي تونسي دافع عن فتاة حتى الموت في المكان نفسه الذي دفن فيه. ولا يمكن هدم القبر أو إزالته. فأي محاولة تعني هلاك الفاعل، أو حدوث أمرٍ ما له».

من جهته، يقول التاجر محمد الشافعي، لـ «العربي الجديد»، إنّه كغيره من أصحاب تلك المحال التجارية في المكان، سمع القصة عن جدّه وكبار السن ومن سبقوهم في ذلك السوق. يضيف: «القبر يعود لجندي تونسي قُتل زمن الاحتلال الإسباني (من 1535 إلى 1574) عندما كان يدافع عن فتاة تعرّضت للتحرّش من قبل أحد الجنود الإسبان وبقي يدافع عنها بمفرده إلى أن تمّ قتله في ذلك المكان ودفن فيه. وعند بناء المدينة وغالبية المحال، لم يجرؤ أحد على هدم أو إزالة القبر. ويقال إنّ كل من حاول ذلك سابقاً حصلت له مشكلة ما، أو أنّ القبر ينزف دماً ولا يتوقف إلّا إذا تم إغلاقه أو ترميمه من جديد». يضيف: «طبعاً، الرواية غريبة وصعبة التصديق. لكن هذا ما تمّ تناقله منذ سنوات، وهذا ما يعرفه السكان القدامى ومن تناقلوا الرواية عنهم. وبقي القبر كما هو لا أحد يتجرأ على هدمه أو إزالته. ويقوم التجار هنا بدهنه ودهن سياجه الحديدي باستمرار، لأنّه بقي لغزاً يجلب حتى الزوار والسياح إلى سوق السكاجين وإلى المدينة العتيقة بصفة عامة». ويقع سوق السكاجين في المدينة العتيقة. و«السكاجين» في الأصل تحريف لعبارة الشكازين، جمع شكّاز، أي الحرفي الذي يقوم بصناعة جلود السروج. ويمتد السوق على زقاق كبير تتفرع عنه أزقة فرعية صغيرة توجد فيها عشرات محال الحرفيين من صانعي الفضة والذهب وحرفيي الجلود وصناعة وبيع النحاس، وغيرها من الحرف التقليدية التي تشتهر بها المدينة العتيقة في العاصمة منذ عشرات السنوات. ويزور المكان آلاف الأشخاص يومياً، خصوصاً السياح الأجانب، ما يجعل الحرفيين في المكان من أكثر الأشخاص الذي يُسألون عن سرّ القبر وسبب وجوده في ذلك المكان بالذات.

ويقول معتز (23 عاماً) الذي يروي رواية مختلفة عمن سبقه إنّ «القبر ليس لجندي تونسي بل لمواطن عادي قتل في المكان»، مشيراً إلى أنّ جنوداً إسباناً تحرشوا بفتاة وحاولت الدفاع عن نفسها فقتلت أحد الجنود بينما قام آخر بقتلها. بعد ذلك، قُتل إخوتها جميعاً ودفن كل واحد منهم في المكان الذي قتل فيه. هذا القبر ليس إلا قبر أحد أشقاء الفتاة. وعلى الرغم من بناء المدينة والمحال التجارية، إلّا أنّه تم الحفاظ على القبر لسنوات عدّة. وحتى تجار السوق الذين تعاقبوا على غالبية الدكاكين هنا حافظوا على القبر وعمدوا إلى حمايته من أي اعتداء».

يضيف: «خلال عام 2013، تعرّض القبر لمحاولة تخريب من قبل بعض المتشددين ديناً كانوا ملثمين. لكنّ عمد التجار في المنطقة إلى ترميمه ودهنه من جديد، لأنّه يجلب السياح إلى المكان خصوصاً من أصحاب الفضول لرؤية هذا القبر الغريب الذي رويت عنه العديد من الروايات الغريبة».

سابقاً، كان القبر ملوّناً بالأحمر والأبيض ويحمل العلم التونسي. لكنّ تمّ تزيينه ببعض الزخارف ودهن باللون الأخضر كما تُزيّن غالبية أضرحة الأولياء. وعمد التجار إلى حماية القبر بسياج من حديد مخافة محاولة تخريبه. واعتُبر القبر حارساً للمدينة، مقامه كمقام أحد الأولياء الصالحين، فلا يسمح لأحد بالاعتداء عليه أو تخريبه.

تختلف الروايات عن ذلك القبر، ولا حقيقة تاريخية ثابتة عنه. ويقول حمودة الياس، أحد الباحثين والمغرمين بالحكايات المنسية التونسية، إنّ «الروايات حول القبر تعدّدت وقيل إن عمره تجاوز الـ 500 عام. وتشير أخرى إلى أنّه قبر أول جندي قتله المستعمر الفرنسي، أو أنه يعود لجندي تونسي كان يحارب الجنود الإسبان. وعلى الرغم من قطع رأسه، إلا أنّه ظل يحارب الجنود إلى أن سقطت جثته في المكان حيث دفن». يضيف: «البعض يقول إنّه بعد الاستقلال كانت هناك محاولة لإزالة القبر، لكن بقي ينزف كثيراً إلى أن رمّم من جديد وترك في المكان. لكن تبقى الروايات متعددة ومختلفة لكنها غير ثابتة».

باختصار

القبر يُثير دهشة الغرباء. العديد من المارة يدخلون محلي الصغير لأنّه الأقرب إلى القبر للاستفسار عن سبب وجوده وسط الطريق.

■■■

يعتقد أن القبر يعود لجندي تونسي قُتل زمن الاحتلال الإسباني عندما كان يدافع عن فتاة تعرّضت للتحرّش من قبل أحد الجنود الإسبان.

■■■

عام 2013، تعرّض القبر لمحاولة تخريب من قبل بعض المتشددين. لكنّ عمد التجار في المنطقة إلى ترميمه ودهنه من جديد.

وأخيراً

تحت سقف سيادة الرئيس

رشا عمران

من يستمع إلى كلمة بشار الأسد في مؤتمر خاص بعودة اللاجئين السوريين، عقد قبل يومين في دمشق، يظن أن كائنات فضائية هجّرت هؤلاء اللاجئين من بلادهم، أتت ودمرت سورية وقتلت من قتلت وهجّرت من هجّرت، ثم اختفت، وها هو «السيد الرئيس»، الذي يرى «مسألة اللاجئين إنسانية»، يعقد مؤتمراً خاصاً باللاجئين، طالباً منهم العودة إلى ديارهم، واعداً إياهم بحياة هانئة ورغيدة، إذ يمتلك سوري الداخل حالياً بطاقة ذكية تمكّنه من الحصول على أنبوبة غاز وبعض وقود التدفئة، كما يمكن للسوري أن يحصل على ربطة خبز كل أسبوع... يا لهذه النعم! ويمكنه أيضاً أن يستخدم الكهرباء عدة ساعات متفرّقة خلال يومه. ما الذي يريده اللاجئون أكثر من هذا حتى يعودوا إلى سورية الأسد، التي «يخلو تاريخها من هجرة جماعية»، كما قال، محملاً دول الغرب مسؤولية عدم عودة اللاجئين إلى بلادهم، بسبب «ما تمارسه عليهم من ضغوط»!

المفارقة أنه، باستثناء لبنان، ولا دولة من الدول المشاركة في المؤتمر استقبلت لاجئين سوريين، لا روسيا ولا إيران ولا الهند ولا باكستان ولا الصين ولا البرازيل ولا عُمان. ولا الإمارات، أول من بدأ بإعادة تطبيع العلاقات مع النظام السوري من الدول العربية، وأول المطبعين، في هذا الموسم، مع العدو الإسرائيلي الذي كان يجب أن يرسل مندوباً عنه إلى المؤتمر كي تكتمل الهستيريا.

ما الذي يريده نظام الأسد من هذا المؤتمر الذي قاطعه الاتحاد الأوروبي ومعظم دول العالم؟ أو بالأحرى ما الذي تريده روسيا، كونها هي من دعت إلى المؤتمر، وكونها بمثابة دولة الوصاية على سورية حالياً؟ ومن هم اللاجئون المعنيون بالمؤتمر؟ هل هم الذين يعيشون في المخيمات في الدول المحيطة؟ إن كان هؤلاء المقصودون، فإلى أين يعودون؟ لم يعد لغالبيتهم أماكن للعيش. بيوتهم هدمت، أو احتلتها مليشيات الأسد ومليشيات الفصائل الإسلامية. ثم وجود هؤلاء يخالف نظرية التجانس التي حكى عنها الأسد سابقاً. وحتماً الروس أذكى من أن يعتقدوا أن من لجأوا إلى أوروبا سوف يعودون فعلاً إلى سورية، ويتركون حياتهم الآمنة المستقرة، وهم يرون القهر الذي يعانيه المواطن السوري داخل سورية، حتى مؤيدي نظام الأسد والمدافعين عنه لن يتركوا أمانهم ليعودوا إلى حيث الفلتان الأمني والفوضى وانعدام شروط الحياة الإنسانية، فما بالك بمعارضيه المطلوبين لمعظم الفروع الأمنية، أو الهاربين من الجيش من الرافضين الخضوع لقانون الحرب الذي يجعل منهم قتلة أو مقتولين.

لو افترضنا حسن النية في المؤتمر، كيف سيتم تأمين البيئة المناسبة لعودة الراغبين فعلاً في العودة؟ هل تم الإعلان عن عفو عام عن ملايين المطلوبين في الداخل والخارج؟ والأهم هل تم أي بحث بشأن مئات آلاف المعتقلين في سجون الأسد، والمختفين منذ سنوات طويلة؟ هل تم الكشف عن المقابر الجماعية التي دفن فيها آلاف المقتولين تحت التعذيب، والذين تم إعدامهم في السجون من دون أن تسلم جثثهم إلى عائلاتهم؟ ما هي الضمانات التي وضعت لكي لا يتم التنكيل بمن يرغب بالعودة، كما حدث مع عشرات العائدين ممن فقدت أخبارهم إثر عودتهم؟

> عشرات من السوريين عالقون على الحدود بين سورية ولبنان، لأنهم لا يملكون مائة دولار

السياسة الروسية أذكى من أن تعتقد أن شيئاً كهذا سوف يحدث من دون حل سياسي شامل، ومن دون توافق دولي على حل القضية السورية حلاً نهائياً. هل الأمر إذاً أن روسيا أرادت استباق ما قد يكون معدّاً لسورية بعد استلام جو بايدن الحكم في الولايات المتحدة الأميركية، خصوصاً وأن الرئيس الروسي، بوتين، تربطه علاقات وثيقة مع ترامب، وامتنع حتى اللحظة عن تهنئة بايدن بالفوز؟ هل أراد بوتين أن يقول لبايدن أن لا حل سورياً سوف ينجز إلا وروسيا جزءٌ أساسيٌّ منه، بما فيها إعادة الإعمار، والذي تتحضر له الدول والشركات المستثمرة منذ مدة؟

في كل حال، ليس هذا المؤتمر سوى كوميديا سوداء أخرى تحدُث في سورية، كما سابقاتها: مؤتمر عن عودة اللاجئين وهناك عشرات من السوريين عالقون على الحدود بين سورية ولبنان، لأنهم لا يملكون مائة دولار، المبلغ الذي فرضه النظام على كل سوري يريد الدخول إلى سورية، في سابقةٍ لم تحدث في التاريخ. وهناك آلاف في الداخل السوري يحلمون بالخروج من سورية الأسد. يكفي إلقاء نظرة على تعليقات سوريي الداخل على المؤتمر، ليرى من لم يرد أن يرى يوماً ماذا يحدث في سورية تحت سقف سيادة الرئيس.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**